ثلاثة دكاترة، ولكن...

د. جهاد نعمان

أمسكتُ بالجرم المشهود تباعًا، ثلاثة دكاترة في الأدب، وكلاً (تضعيف اللام الأولى) منهم خلا يبثّ لواعج قلبه لمتيّمته «كان»! الا اسمع تنهّدات الدكتور الأوّل في هنة من هنات جلسته الطويلة:

«وعندما رأته ملقى على الأرض حتى الركبتين، وإحدى يديه ملتوية تحت بدنه، كان ذلك فعلاً صدمةً لها، وكان الحبّ والشوق ينبعان في داخلها، وجرت نحوه ثمّ ركعت بجانبه، كان ذلك سهلاً، لم يكن التمثيل ضروريًا».

فالدكتور صاحب هذا المقطع، تكرّرت «كان» في مساحة خمس صفحات، ثماني وخمسين مرّةً. اللهمّ بارك لا تزد.

وهاك الدكتور الثاني في مقطع قصير، من مقالة حوت ستًا وثلاثين مرة فعل «كان» ولا تتجاوز مساحتها الصفحات الأربع.

«أما شعره فكان له نكهة خاصّة، كان أصيلاً في لغة حميمة، بل لعلّه إلى اليوم، خير نموذج يمكن أن يحفظه التلاميذ، لأنّه يقوّم أسلوبهم، ويمكّن من لغتهم، ويدرّبهم على الكتابة الصحيحة، وعلى الكلمة الصافية، التي كان ينطق بها العرب، ولم يكن متقعرًا في لغته ولا متكلّفًا، بل كان كثير الحفظ وكان يستطيع الإفادة من هذا الحفظ، كما كان يحسن استعمال اللفظة الأصيلة في مكانها، وكان تأثّر الشاعر بمن سبقه. كان موزّعًا توزيعًا متناسبًا، بحيث لا ترى لأحد من أولئك السلف الصالح أثرًا واضحًا».

وأمّا الدكتور الثالث فشأنه شأن صنويه السابقين نظرًا إلى ترداد «كان» وإنّما يتميّز منهما بما عنده من تراكم الأخطاء اللغويّة والمنطقيّة. فهاك بعضاً من مقطع وجيز من مقالته التي حوت «كان» أكثر من خمسين مرة، وفي هذا المقطع الذي اخترت بعضاً منه كنموذج تتجلّى أخطاء لغويّة كثيرة عدا عبث «كان» المفرط:

«... وكان للحلم تأثير عظيم علينا (والصواب فينا).. فلقد كنت منهوك القوى شديد الحنق شاحبة (؟) اللون مرتجفة (!). ذلك لأنّها (؟) (والصواب ذلك أنّني) حلمت (؟) نفس الحلم (والصواب الحلم نفسه) مرة أخرى وانفجرت (؟!) باكية وهي تسألني إن كنتُ (والصواب «هل») أحبّها أم أكرهها (حشو غير ضروري وغير منطقي لأن العاطفة قد تكون أخويّة أو بين بين...)، فأقسمتُ لها أنّي كنتُ أحبّها (هل أحبّها حصراً في الماضي؟) وأخيرًا نامت وكان في ذلك أكثر ما أستطيع فعله...».

وبعد، يا قارئي، أفدني، في صراحة، هل رأيتَ أسفّ من هذه النماذج التي عبثت بها أيدي «كان» فضلاً عن الحشو واللامنطق! أليس في هذا برهان دامغ على إهمال متراكم، لدى هؤلاء الدكاترة ومَن تدكتر بعدهم وقبلهم، منذ عهد التلمذة. أنت مدعوّ إلى تحديد المسؤولين عن هذا الإهمال وعن هذه النتيجة المخجلة والمخزية!

وهكذا فعل «كان»، يتمشّى في الكتابة، كتمشّي السارق في الظلام، لكي لا أقول: كتمشّي البرء في السقم، وكتمشّي النعاس في الجفون، لكي لا أقول: كتمشّي السقم في الجسم. وهكذا يتوكّأون، من حيث لا يدرون، على عدوّ مرّ المذاق. ومنظر هذا الفعل، في الجمل، كثيراً ما يتجلّى كمنظر ونيم الذباب (أي سلحه، رجيعه) على قطعة حلوى تتحلّب لها الشفاه، لولا الذي عراها فأساء إلى بهاها.